دموع الدم والنار

عدنان محمد مصطفى خضر

عدنان محمد مصطفى خضر

كاتب وباحث أردني، من مواليد 24 نوفمبر 1999. حاصل على بكالوريوس في التاريخ من جامعة عجلون الوطنية، ويتميز بشغف عميق بالتاريخ الإسلامي واللغات القديمة. بدأ مسيرته الأدبية في سن الرابعة عشرة، ونشر عددًا من الروايات التي نالت تكريمات وشهادات تقدير، أبرزها:

قلب المدينة المشتعل

قرية الشياطين

أسرار الرمال

من كثرة قرائته المستمرة ، مما أثرى تجربته الثقافية والإنسانية، ويعمل حاليًا على مشاريع بحثية تدمج بين التحليل التاريخي والأسلوب الأدبي الجذاب، ومن أبرز أبحاثه الحديثة: دراسة حول أصول الأنباط وعلاقتهم بالآراميين.

للتواصل

0787252119

adnankhder0000@gmail.com

تفاصيل الرواية

العنوان: دموع الدم والنار

نوع العمل: مجموعة قصصية تاريخية

عدد الصفحات (تقديري): حوالي 120-150 صفحة

الملخص:

تقدم هذه الرواية مجموعة من القصص التاريخية التي تسلط الضوء على مواقف بطولية ونضالات مشحونة بالعواطف من عصور مختلفة. من خلال سرد حي ومشوق، تظهر الرواية كيف واجه أبطال التاريخ تحديات كبيرة، ابتداءً من قراصنة البحر المتوسط في عهد السلطان سليم الثاني، مروراً بفروسية خالد بن الوليد رضي الله عنه، وصولاً إلى دروس خالدة مستوحاة من التاريخ العميق.

تتسم القصص بالواقعية التاريخية مع لمسة سردية مشوقة، تهدف إلى إحياء القيم الإنسانية كالعدل، الشجاعة، والرحمة، مع إبراز أن النصر الحقيقي لا يكون فقط بالقوة، بل بالإيمان والإصرار على الحق.

نبذة عن الكاتب

اسمي [عدنان محمد مصطفى خضر]، كاتب مهتم بالتاريخ والقصص الإنسانية. أعمل على دمج الحقائق التاريخية مع السرد القصصي بطريقة جذابة ومليئة بالإثارة، بهدف إحياء التاريخ بطريقة تصل إلى القارئ المعاصر بكل سهولة وتأثير. لدي خلفية واسعة في قراءة وتحليل المصادر التاريخية، وأسعى من خلال عملي إلى تقديم قصص تحمل عبرًا ودروسًا قيمة.

المقدمة

حين ينهض التاريخ من بين السطور

أكتب هذا الكتاب لا لأحكي ما حدث، بل لأوقظ ما نُسي.

لست مؤرّخًا يحمل دفاتر الزمن، بل روحًا تبحث عن أرواح تشبهها بين ركام القرون.

كل قصة هنا كتبتها بدمعة ودهشة، بخوف من أن تُنسى، وبحبٍّ لأولئك الذين صنعوا المجد ومضوا بصمت، دون أن يطالبوا بأوسمة أو شهرة.

ما ستقرأه ليس "ماضٍ قد مضى"، بل مرآة لما يمكن أن نكون.

ستعرف أن خالد بن الوليد لم يكن مجرد سيف، بل قلبٌ لا يعرف إلا النُّبل.

وأن الفلاح البسيط الذي تركه سالمًا، كان جزءًا من معركته أيضًا.

وأن البطولة ليست دائمًا في الضربات، بل في الرأفة حين تكون قادرًا على البطش.

في هذا الكتاب...

سيمشي معك التاريخ لا كظل، بل كرفيق، كأخ كبير، كمرشد في زمن ضاعت فيه المعاني.

اقرأ لتعرف.

واقرأ لتشعر.

واقرأ... لتنهض.

عدنان محمد مصطفى خضر

ابن التاريخ... وصديق الحقيقة

"ترونو جويو.. الفقيه الذي دوّى صوته في جزيرة النار"

في جزيرة تئن تحت وطأة الغدر والمكر، بزغ فجر رجل لم يكن جنديًا ولا ملكًا، بل فقيهًا من فقهاء الشافعية، اسمه ترونو جويو. لم يكن يحمل سوى علمه وإيمانه، وغيرة تتفجر كبركان على دين يُباع في المزاد، وعلى دماء العلماء تسيل على يد سلطان باع نفسه للصليب.

كانت جزيرة جاوة تتلوى في قبضة الخيانة، إذ اختار سلطان مملكة ماترام، المدعو "منكورات الأول"، أن يصافح أعداء الله من الهولنديين، ويطعن في خاصرة أمته. وقف الفقيه يشهد هذا المشهد الجلل، فانفجر داخله يقين لا يُقاوَم: "الساكت عن الحق شيطان أخرس، وأنا لست منهم!"

صرخ في وجوه القوم، فلبّاه الرجال من سومطرة، ومن مكاسر وسليبس، جاءه الأبطال من كل حدب وصوب، يحملون سيوفهم وقلوبهم، وعيونهم تلمع ببريق الشهادة.

تقدمهم الشيخ، لا يهاب بحرًا ولا حصارًا. تحالفت معه مملكة بانتن بقيادة السلطان المجاهد أبو الفتوح عبد الفتاح، وسارت القوافل بالسلاح والرجال والمؤونة. ضاقت الأرض على الهولنديين بما رحبت، فحاصروا المجاهدين في ديموج، لكنهم ما دروا أن أرواح أولئك القوم لا تُحاصر.

في سنة 1088هـ/1676م، اشتعلت الأرض نارًا تحت أقدام الغزاة، وسقطت جيوشهم بين قتيل وأسير، وتزلزلت عروشهم، وتقدمت رايات المجاهدين حتى اقتربت من قلب مملكة ماترام نفسها.

عندها، باع منكورات آخر ما تبقى من نخوته، فكتب عقدًا مع الهولنديين: "اقتلوا لي الفقيه، وسأدفع لكم الذهب والبلاد!"

جاؤوا بجيش كالجراد، لا يميّز بين طفل وشيخ، واندلعت معارك لا تهدأ فيها السيوف، حتى أُسر البطل بعد أن أثخنهم جراحًا. جيء به مكبلًا، لكن جبينه لم ينحنِ. نظر في وجه الخائن وقال: "خذ ما شئت، لكن لا تنزع مني شرفي." فهجم منكورات عليه كالذئب، وقتله بيده المرتعشة، ظانًا أنه سينتقم، لكنه لم يكن يعلم أن الله يدّخر له مصيرًا أسود.

لم تمضِ أيام حتى أصيب ذلك الخائن بصرع أهلك عقله، فخرج هائمًا في الغابات، لا يميز شجرًا من حجر، وانتهى ككلب مطرود من مملكة لم يملكها يومًا، "فخسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين."

أما ترونو جويو، فقد سُطّر اسمه في صفحات المجد، رجل من نار، قلبه القرآن، وروحه معلقة في السماء. باع ملكه ليشتري الفردوس، فكان ممن قال الله فيهم:

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}

[الأحزاب: 23]

.....ثغرة الإسلام – علم الدين سنجر وتطهير الساحل الشامي

رواية مستوحاة من أحداث حقيقية

كانت عكا آنذاك آخر الحصون الصليبية على ساحل الشام، وكانت الرياح تحمل رائحة البارود والدعاء، تصطخب الموجات بأسنة المجاهدين وتكبيراتهم، والقلوب معلّقة بما تبقى من أرضٍ دنّسها الفرنجة قرنين من الزمان.

في غمرة الحصار، وفي خضم المعارك الضارية، تسللت قطعة من الأسطول الإسلامي بقيادة الأمير علم الدين سنجر، ذاك القائد الذي كانت الأرض تميد تحت قدميه إن نطق اسم الجهاد، وكان يرى البحر دربه نحو النصر أو الشهادة.

لم يكن هدفه عكا فحسب، بل كان يحمل خريطةً مرسومة في قلبه، عنوانها: "تصفية الساحل الشامي من آخر شوكة صليبية".

أول المحطات كانت صور. تلك المدينة الحصينة التي طالما كانت عقدةً في طريق الفاتحين، فإذا بحاكمها الصليبي آدم كافران يهرب مذعورًا إلى قبرص، تاركًا المدينة لمصيرها.

دخلها علم الدين بعد معارك كُتب فيها المجد، وكُتبت على جدرانها آية النصر:

{فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين}.

ومن صور انطلقت السفن الإسلامية إلى صيدا، معقل فرسان الداوية، أولئك الذين احتموا بجزيرة وقلاع راسخة.

لكن علم الدين لم يكن يؤمن بالحواجز، أمر المهندسين المسلمين ببناء جسر يربط الجزيرة بالشاطئ.

لم يكن الأمر يسيرًا، فقد امتد الحصار شهورًا، لكن الصبر مفتاح النصر.

هرب الداوية في النهاية إلى طرطوس، وطلب أهل المدينة الأمان، فأمنهم علم الدين ودخلها في 15 رجب 690هـ.

ثم زحف بقوّاته شمالًا نحو بيروت، فما إن سمع حاميتها بقدومه حتى فرّوا، ودخلها بلا قتال، وحطم القلاع ورفع الآذان في مسجد كان بالأمس كاتدرائية.

ثم واصل زحفه نحو أنطرطوس، وما إن علم الصليبيون بوصوله، حتى هربوا، لكن سيف المجاهد لا ينام، فطاردهم علم الدين وأوقع بهم مقتلة عظيمة في 5 شعبان 690هـ.

انتهى الاحتلال الصليبي بهذه الحملة الميمونة، بعد قرنين من الغزو (490هـ - 690هـ)، كأن صوت قرون الانكسار قد انطفأ، وبزغ فجر جديد من ضوء السيوف ودماء الشهداء.

أما علم الدين سنجر، فكان مثالًا للجندي الذي باع دنياه، وهجر الأهل والوطن، لا يحمل في قلبه إلا حب الجهاد.

يبيت في خيمة تتلاعب بها الرياح، ويرى السكينة في ظل لواء الإسلام وهو يرفرف فوق القلاع المحررة.

كان يدعو الله دائمًا قائلاً:

"اللهم لا تجعل لي خاتمة إلا على سيف في سبيلك، أو سهم يسبقني إليك."

وقد استجاب الله دعاءه، إذ نال شهادةً تليق بمقامه بعد رحلة من البطولة لا تنسى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله" [متفق عليه]

شتاء البلقان ونار الإيمان

كانت الثلوج تتساقط بغزارة على سهول البلقان، وكان البرد ينهش عظام الرجال، لكن نار الإيمان في قلوبهم كانت أشد دفئًا من كل نار. في إحدى الليالي الحالكة من شتاء عام 1356، وبينما كانت جيوش المسلمين ترابط في الحصنين اللذين فتحهما الأمير سليمان باشا، ورد خبر عاجل بأن جيشًا صليبيًا ضخمًا تحرك من عمق أوروبا، متجهًا نحو الحصون التي استولى عليها المسلمون حديثًا.

كان الأمير سليمان يجلس داخل خيمته، يتأمل خارطة المنطقة، فدخل عليه القائد تيمور طاش وقال:

- "سيدي، وردنا أن جيوش المجر والألبان تتحرك بقوة كبيرة نحونا."

رد الأمير بثبات: "الحمد لله الذي جعل لنا في كل كرب فرجًا. هذه معركة لا مفر منها، والفرصة لنثبت أننا أمناء على هذه الأرض التي فتحت بدماء طاهرة."

وفي صباح اليوم التالي، دعا الأمير إلى اجتماع طارئ لجميع القادة. كان وجهه مشرقًا رغم البرد، وقال بصوته الجهوري:

- "يا رجال الإسلام، لسنا هنا من أجل أرض ولا سلطان، نحن هنا من أجل إعلاء كلمة الله. وقد وعدنا ربنا إما النصر أو الشهادة. فمن كان معنا على العهد فليثبت، ومن خشي الموت فله أن يعود."

لم يتراجع أحد. بل تعالت صيحات "الله أكبر"، وتجهز الفرسان، واصطفّ الرماة، وجهزت المصائد، واستُخدمت الثلوج لتغطية الكمائن.

وفي الليلة التي سبقت المعركة، رأى الأمير سليمان رؤيا عجيبة؛ رأى نفسه يقاتل وسط الثلج، والملائكة تهبط من السماء تقاتل معه. فاستيقظ فجرًا وأيقن أن النصر قريب.

وحين طلعت الشمس، دوّت طبول الحرب، واصطدمت الجيوش في معركة ضارية. كانت أعداد المسلمين أقل، لكنهم كانوا كالأسود، يتحركون بثقة، ويقاتلون بقلب رجل واحد. تسللت مجموعة من فرسان الأمير من خلف العدو، وأضرمت النار في مؤنهم وخيولهم، فعمّت الفوضى صفوف الصليبيين.

وفي نهاية اليوم، كان الثلج قد تحول إلى غطاء أبيض فوق آلاف الجثث، وانسحب من تبقى من جيش الصليب منهزمين. وأما المسلمون، فقد ثبتوا في مواقعهم، ورفعوا راية التوحيد على أعلى أبراج الحصن.

وقف الأمير سليمان أمام جنوده، ودموع النصر في عينيه، وقال:

- "الحمد لله الذي نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا هو."

ومنذ ذلك اليوم، عرف الصليبيون أن على أبواب أوروبا رجالًا لا يُهزمون، وأن الدولة العثمانية قد بدأت مسيرتها الكبرى في قارة جديدة، لا رجعة فيها إلا بالنصر أو الشهادة.

{فَانْتَصَرُوا۟ فَنُكِسَ عَلَىٰ رِئُسِهِمْ الْمُهْزَمُونَ}

صدق الله العظيم.

طرابلس تحت السلاسل

حين دخل الطليان طرابلس، لم يحملوا سوى نوايا سوداء وسكاكين الغدر! لم يكن جيشًا دخل أرضًا، بل كانت عاصفة وحشية اقتلعت الرحمة من جذورها.

كانوا يطوفون في الأزقة كأنهم ذئاب جائعة، لا يبحثون عن أعداء، بل عن أي نفس عربية يطفئون نورها.

الجنرال المتغطرس لم يكن يعرف قوانين حرب، بل قوانين الانتقام الوحشي.

أصدر أوامره: "اقتلوا كل من تنفس! سواء كان يحمل سلاحًا أو يحمل طفلًا!"

في كل مساء، كان يُقاد الأسرى بالأغلال كما تُقاد الذبائح إلى المجزرة، يُربط المعصم بالساق، وتُصفد الأرواح في أقفاص الحديد!

أما الجنود، فقد نزعوا إنسانيتهم كما ينزعون معاطفهم، وتحوّلوا إلى أدوات للموت، يطلقون النار على كل من يمر أمامهم،

لا يسألون عن الاسم، ولا عن السن، فالرصاصة لا تفرّق بين شيخٍ وطفل.

في إحدى الحارات، شوهدت جثث الشيوخ فوق جثث النساء، وفوق الجميع، جثة لطفل لم تُكمل لعبتها.

وكان الدخان يتصاعد من ملابسهم المحترقة، كأن السماء ترفض أن تبقى صامتة أمام هذا الجنون.

وفي ركنٍ آخر من المدينة، وُجدت عائلة كاملة مذبوحة على مائدة الطعام...

لم يحترموا حتى الخبز الساخن، ولا الدعاء قبل الأكل، فقط سفكوا الدم وتركوا الصمت يتكلم عنهم.

ومن بين كل تلك الصور، كانت عيون طفلة صغيرة تختبئ في صندوق، تظن أنها إن لم ترَ الموت، فلن يراها!

لكن رصاص الحضارة المزعومة لا يرحم... لا يرى الطفولة إلا هدفًا جديدًا.

هذه ليست حربًا، بل مجزرة تحت شعار "التقدم"... وهذه ليست حضارة، بل عارٌ يتوارى عنه التاريخ.

{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}

[إبراهيم: 42]

الرجل الذي أدى الأمانة بعد موتة

في ليلٍ أسود، تلفحه رياح البحر المالحة، وتخنقه رائحة البارود والموت... كان البحر يهمس بأسرار الصالحين، والنجوم ترقب المشهد بصمتٍ مهيب.

اسمه "عيسى"... مجرد عوام، رجل من عامة المسلمين. لكن قلبه، كان قلب أسد، وروحه روح فارس، يغامر كل ليلة، يشق ظلمة البحر وحده، بين سفن الصليبيين المرصوصة كالأشواك، يسبح كأنه طيف، لا يُرى ولا يُسمع... يحمل الذهب على صدره والرسائل في يده، ليصل بها إلى المحاصرين في عكا.

كان رجلاً من ماء، لا من لحم ودم. وكان يختفي مع كل فجر، ثم يعود مع الليل... وكانوا كلما رأوا الطائر يحلق فوق أسوار المدينة، علموا أن "عيسى" وصل. كان الطائر إشارة، والطائر لا يخطئ.

لكن ذات ليلة، خيّم الصمت... لم يعد الطائر.

صلى الناس، وبكوا، وتوقعوا الأسوأ.

هل سقط؟ هل أمسكوه؟ هل انتهى؟

مرت الأيام بطيئة كالسكاكين...

ثم، وبينما الناس على الشاطئ يرمقون الأفق بعينٍ فيها دمعة، رأوا جسدًا يطفو على وجه البحر، مقبلاً كأنه عائد برسالة أخيرة.

سحبوه... إنه هو. عيسى العوام.

كان البحر قد أعاده بنفسه، كأنه يعرف أن الأمانة لم تُسلّم بعد.

وعلى وسطه، لا يزال الذهب مشدودًا كما كان.

وفي يده، لا تزال الرسالة ممسكة، مبللة لكن باقية.

"أدى الأمانة بعد موته"...

يا الله، أي روحٍ هذه؟ أي صدقٍ هذا؟

لقد مات وهو يؤدي مهمته، لكن حتى الموت لم يمنعه من إتمامها.

في العشر الأواخر من رجب، سنة 588هـ، كتب الله له الشهادة، والخلود في ذاكرة المجاهدين، ورفعه إلى مقاماتٍ لا يعلمها إلا هو.

كان عيسى عوامًا، لكنه غاص في عمق المجد.

كان جسده من ماء، لكن قلبه من نور.

رحمه الله، وجعلنا من أمثاله.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة."

(رواه مسلم)

عمر المختار وأسد الصحراء... رفض الذل وبسالة المجاهد

في عام 1311 هـ، كان الشيخ عمر المختار يقود وفدًا من مشايخ الحركة السنوسية في رحلة محفوفة بالمخاطر نحو السودان. انضم إليهم قافلة من التجار المتمرسين، يقطعون الصحارى الواسعة التي لا تعرف الرحمة.

في قلب الصحراء، اقتربوا من ممر ضيق، حُكي عن أسد يتربص هناك، يخطف من يمر على دربه. كانت العادة القديمة تقول إن القوافل تُبقي له هدية – بعيرًا هزيلًا يُترك له كي لا يُهاجمهم. لكن عمر المختار وقف حازمًا ضد هذه العادة المهينة. قال بصوت ملؤه العزيمة:

"لقد سقطت الإتاوات والظلم، لن نكرر الذل بإعطاء الأسد حقًا لا يستحقه. سنقاتل من أجل كرامتنا، وسنحمي أنفسنا مهما كان الثمن."

حتى عندما بدأ بعض التجار يترددون ويخشون المواجهة، أصر عمر بأن لا خيار أمامهم سوى الوقوف بثبات.

"أنا أخجل أن أعود لأهلي وقصتي تحملُي كمن تركت بعيرًا لحيوان يعترض طريقي، نحن صقور الصحراء لا نقبل الهوان."

حين دخلوا الممر، خرج الأسد من مخبئه، عيناه تلمعان بالجوع والوحشية. رجف أحد التجار من الخوف، لكنه كان على موعد مع الشجاعة. أطلق عمر المختار رصاصة أولى أصابت الأسد، لكنه لم يقتله. ارتقى الأسد جريحًا نحو القافلة، فأعاد عمر إطلاق النار رصاصة تلو الأخرى حتى استسلم الأسد إلى الموت.

لم يكتفِ عمر بهذا، بل أمر بسلخ جلد الأسد وعرضه على أصحاب القوافل كرمز لرفض الذل وصمود الإنسان الذي لا ينكسر. قصة مشهودة تروى حتى اليوم عن رجال صدقوا حين قالوا لا للذل مهما علت قوة الخصم.

هذا هو عمر المختار، المجاهد الصلب، الذي علم الأجيال أن الحرية لا تُشترى بالذل، وأن الكرامة أغلى من حياة البعير أو غيره.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم....

"إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه."

(رواه البيهقي)

الأسير الذي هزم إمبراطورً

في ليلة باردة تلفها رياح الشمال، وفي عمق بلاط بيزنطة، جلس الإمبراطور هرقل على عرشه الذهبي، يراقب جنوده وهم يدخلون عليه بأسير مقيّد، تتساقط من عينيه شرارات التحدي لا الدموع. إنه عبد الله بن حذافة... رجل، لا، صخرةٌ من إيمان تسير على الأرض.

حين أُمسك في إحدى المعارك الطاحنة بين جيش الإسلام وجحافل الروم، لم يتخيل الجنود أن هذا الأسير سيقلب موازين البلاط الإمبراطوري.

ابتسم هرقل ببرود، وقال بلغة المنتصر المتعجرف:

- "لقد سمعت أنك من أصحاب محمد. أعرض عليك ما لا يُرد: تنصّر، وأعطيك نصف ملكي، وأجعلك ندًا لي."

صمت عبد الله لحظة، ثم رفع رأسه شامخًا، وقال بصوت هادئ كالسيف:

- "لو أعطيتني ملكك وملك العرب والعجم، ما تركت دين محمد طرفة عين."

ضرب هرقل بقبضته على ذراع العرش، فأصدر أمرًا فوريًا:

"احبسوه. لا طعام له إلا لحم الخنزير، ولا شراب إلا الخمر."

ثلاثة أيام مرت... لم يذق خلالها عبد الله طعامًا ولا شرابًا، ورجال هرقل يراقبونه في دهشة، فقد كان بإمكانه أن يأكل للضرورة... لكنه خشي أن يُشمت بدينه.

أُخرج من حبسه ضعيف الجسد، قوي الروح. عُرض عليه التنصّر مجددًا، فردّ بجملة كسرت الكبرياء الإمبراطوري:

- "إنما تعذب جسدًا فانياً... أما ديني، فلا سلطان لك عليه."

أراد هرقل أن يكسر روحه كما لم يستطع كسر إيمانه، فأمر بقدر مملوء بزيت يغلي، وألقى فيه أسيرين أمام عيني عبد الله. تفتت اللحم عن العظم، وتعالت رائحة الموت... ثم أُخذ عبد الله نحو القدر.

وأمام مشهد النهاية، بكى عبد الله.

تهلل وجه هرقل:

- "أخيرًا... دموع الخوف؟"

لكن عبد الله ردّ عليه بما لم يتوقعه أحد:

- "بكيتُ لأني لا أملك إلا نفسًا واحدة أُلقى بها في سبيل الله، وددتُ لو أن لي بعدد شعري أنفسًا تموت كلها في هذا الطريق."

سقط الصمت على البلاط... لقد هُزم الإمبراطور. ليس بسيف ولا جيش، بل بكلمة.

هنا، لجأ إلى حيلة أخيرة، وقال باستياء رجل كُسر كبرياؤه:

- "قبّل رأسي، وأخلي سبيلك."

سكت عبد الله لحظة، ثم قال بشجاعة فذّة:

- "أقبل رأسك... بشرط: أن تُطلق كل أسراي معي."

وافق هرقل... فاقترب عبد الله، وقبّل رأس الملك أمام جنوده، لا خضوعًا، بل انتصارًا.

وحين عاد عبد الله إلى المدينة، استقبله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقام وقبّل رأسه قائلاً:

- "حق على كل مسلم أن يقبل رأسك، وأنا أبدأ."

هكذا تُروى ملاحم الرجال... لا على جبهات القتال فقط، بل في ميادين الثبات، حيث يُهزم الباطل، لا بالسيوف، بل بالعقيدة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم...

"عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر، فكان خيرًا له."

— رواه مسلم

. حين سقطت أوروبا تحت أقدام الصبر

كانت أوروبا في رجفة لم تعرفها من قبل، والسماء فوق فيينا سوداء كالحداد. فالعثمانيون قادمون، وهذه المرة، ليس بقيادة قائد جيش، بل السلطان بنفسه، محمد الثالث، يحمل سيف جده سليمان، وعلى كتفيه بردة رسول الله، في عينيه شجاعة السلاطين وفي قلبه نار الدعاء.

من إسطنبول خرج ومعه عالِم الدين الجليل، الشيخ سعد الدين أفندي، الذي لم يحمل رمحًا قط، لكنه كان يحمل ما هو أثقل: إيمان لا يتزلزل، وكلمة تُحيي الموتى.

كان الهدف واضحًا: النمسا، قلب التحالف الصليبي، الذي جمع كل قواه لطرد المسلمين من قلب أوروبا. وحين وصل الجيش العثماني إلى سهل "هاجوفا"، استقبلهم العدو بوابل من النار.

في البداية، سقطت المقدمة، استشهد مئات من جنود الإسلام، وخسرت الدولة مدافعها. لو كان جيشًا آخر، لانكسر، لكن هذا كان جيشًا تقوده الدعوات وتشد أزره الأرواح الطاهرة.

هُزم العثمانيون في أولى المعارك، وسُميت تلك الهزيمة بـ"هاجوفا الأولى".

لكن في الخفاء، كانت النار تُعد لما هو أعظم.

أربعة أيام فقط، ثم هاجم الألمان قلب الجيش بقيادة سنان باشا، فقلب عليهم المعركة، وبدأت ملحمة من نار وحديد.

بلغ القتال الخيمة السلطانية، ودخل الوزير الأعظم مخيم السلطان قائلاً: "يا سيدي، يجب أن تنسحب، حفاظًا على الدولة!"

فنهض السلطان، ممتطيًا فرسه، لكن الشيخ سعد الدين أمسك بالعنان.

"لا ترحل... إن الجيش إذا فقدك، انهار، والنصر لا يُهدى، بل يُنتزع!"

وقف السلطان أمام جيشه، والجنود يبكون من هول اللحظة، فاستيقظ فيهم الكبرياء.

في اليوم التالي، فعل الشيخ ما لا يفعله الملوك. نادى على الطباخين، والمُمرضين، والعبيد، وسائسي الخيول، وجعلهم جنودًا، وقادهم بنفسه.

"قاتلوا لأجل لا إله إلا الله!"

فلبّوا النداء، وساروا نحو العدو بفؤوس الخشب ومطارق الحديد، كأنهم جيش من القيامة.

فوجئ الصليبيون... ثم تراجعوا، ثم انهاروا، ثم صرخوا، ثم سقطوا.

وفي أقل من نهار، كانت جثثهم تملأ السهل، وماء المستنقعات صار أحمر من الدم.

انتهت المعركة، وكان النصر للعثمانيين. لا لأنهم أقوى، بل لأنهم صبروا.

سمّاها الأوروبيون...اليوم الذي بكت فيه أوروبا...

وسمّاها المسلمون....يوم سعد الدين أفندي

العبرة

عندما تفشل القوة، ينتصر الإيمان.

لجيش الذي يؤمن بقائده لا يُهزم، حتى لو قاتل بالفؤوس.

"حين صرخ العز... وسقطت هيبة السلطان"

لم تكن القاهرة في ذلك اليوم تُشبه نفسها، فالشوارع قد امتلأت، والقلوب ارتجفت بشوق، والعيون امتلأت بالانتظار. لم يأتِ سلطانٌ، ولم يُفتح حصن، إنما هو العز بن عبد السلام، الشيخ الذي سار بين السيوف في دمشق، وخرج من الأسر كأنه ضوء خرج من حلكة الظلام.

استقبله الناس وكأنه العيد نفسه، لا يوم من أيامه. أمر السلطان نجم الدين أيوب رجاله أن يرتدوا حُلَل العيد، وخرج هو بنفسه، بهيبته المدوية، ليستقبل رجلًا لا يملك قصرًا ولا جيشًا، لكنه يحمل في صدره ما لم تحمله خزائن مصر.

اشترى له أهل مصر دارًا فسيحة وسط حديقة، لا حبًّا في الديكور، بل عرفانًا بمنزلة هذا الرجل الذي كانت كلمته أثقل من السيف.

ولم تمضِ أيام، حتى تهادى صوته بين قاعات جامع عمرو بن العاص، وصدح فوق منابر القضاء، قاضي القضاة صار، وخطيب الجمعة أصبح، لكن هيبة المنصب لم تُطفئ جمرة الحق في صدره.

وفي يوم من أيام العيد، خرج السلطان في موكبه المهيب: خيول تصهل، أعلام ترفرف، جُند مصطفّون كالسيوف، وسيوف تشع كبريق الشمس. الدنيا صمتت، والمارة ركّزوا أعينهم نحو موكب السلطان، فإذا بشيخ يتقدّم من بين الصفوف، يمشي وحده، بثوبه الرمادي ولحيته البيضاء، وينادي بصوت مزلزل....

"يا أيوب!"

لا لقب، لا مجاملة، لا "مولانا السلطان"، فقط: أيوب.

توقف الموكب. توقفت الخيول، وتجمّدت الوجوه، حتى كأن الطير فوق الرؤوس. التفت السلطان، ووجهه بين الدهشة والغضب، فقال له الشيخ....

"ما حجتك عند الله إن قال لك: ألم أُبوئك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟"

اهتزّت القاهرة قبل أن يهتزّ قلب السلطان. همس: "أحصل هذا؟"

قال العز: "نعم، في الحانة الفلانية، يُباع الخمر، والمنكر قائم، وأنت في نعمة هذه المملكة."

قال السلطان بضعف: "كانت على عهد أبي."

فردّ العز بصوتٍ لا يعرف الخوف:

"أأنت ممن قال الله عنهم: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ؟!"

فأمر السلطان بإغلاق الحانة فورًا.

بعدها، عاد الشيخ إلى مجلسه، وسأله تلميذه الباجي:

"يا سيدي، لم فعلت ذلك؟ أما خفته؟"

قال العز، بابتسامة واثقة:

"لقد رأيتُ في عينه العظمة، فأردت أن أهينه، لئلا تكبر نفسه فتؤذيه. أما خفته؟ والله لقد استحضرتُ عظمة الله أمامي، فصار السلطان عندي كقطة صغيرة، ولو كنت أحتاج إليه شيئًا من الدنيا، لرأيتُه الدنيا كلها."

العبرة

من خاف الله... خافت منه الملوك.

ظلال التين... حين غفت الحراسة واستيقظ الفتح

كان المطر غزيرًا تلك الليلة، يجلد الأرض بصفعاته المتتالية، فيما كان الظلام ينسج عباءته السوداء على ضفتي نهر قرطبة... لكن خلف هذا الهدوء القاتل، كانت هناك عيون لا تنام، وخيول لا ترتجف من بردٍ أو مطر.

سبعمائة فارس، لا فيهم راجل، تسلحوا بالخيل التي غنموها من معركة وادي لكة، يسيرون في صمت خلف قائدهم مغيث الرومي، رجل لا يعرف الخوف، ولا يتحدث كثيرًا، لكنه حين يتكلم، يسكت كل شيء.

استتروا في غيضةٍ بين قريتي شقندة وطرسيا، بين أشجار الأرز التي تخفي أكثر مما تكشف، واستنطقوا الأرض عن أسرارها عبر راعي غنمٍ إسباني، بدا له الأمر مجرد حلمٍ غريب: هؤلاء القادمون لا يبحثون عن الكلأ، بل عن فتحٍ يغير وجه الأندلس.

قال الراعي: "باب الصورة... فيه ثغرة صغيرة... فوق القنطرة... لكن المدينة محصنة، والحاكم تحصن في أربعمئة فارس."

لم يهتم مغيث كثيرًا بالكلمات الأخيرة، ما دام هناك ثغرة، فإن للحصون نهاية.

وفي عمق الليل، حين ظنت الحامية أن المطر أقوى من كل غزو، سبحت خيول المسلمين عبر النهر، لم يسمع لهم حسيس، فالمطر أخفى وقع حوافرهم، والبرد شلّ يقظة الحراس.

لكن السور لم يكن مزاحًا، عالٍ كأنه يقف على أطراف الغيم. دار الجنود يبحثون عن تلك الثغرة، ثم عادوا للراعي، فقادهم، هناك... شجرة تين، كانت وحدها تدرك أن الليلة ليست ككل الليالي.

صعد أول فارس مستعينًا بأغصانها، ونزع مغيث عمامته فصارت حبلًا سريًا بين الأرض والفتح، وتلاحق الرجال فوق السور كأنهم ظلّ السحاب، حتى تسلقوه جميعًا، وداهموا الحراس، وكسروا أقفال باب الصورة.

اندفع المغيث كالسيل، فتح الباب، فدخل الفرسان، وكان أهل قرطبة نيامًا في حضن المطر، لم يعلموا أن فجرًا جديدًا قد دخل المدينة دون استئذان.

أما الحاكم، فقد فر إلى كنيسة "شنت أجلح"، محصنة كالقلاع، وبقي فيها مع رجاله ثلاث شهور كاملة، يتوهم الأمان تحت جدرانها، لكن ماءها الذي يأتي من عينٍ خفية في الجبل، كان خيطها الأضعف... فقطعه المسلمون.

وحين أدرك الحاكم أن الحصار سيذبحه عطشًا قبل السيوف، فرّ وحده ليلًا، كمن يهرب من ظله. لكن مغيثًا لمح طيفه، وانطلق خلفه، حتى وقع الحاكم من فرسه بعد أن تعثر في طريق قطلبرة... وأُسر.

لم يُؤسر من أمراء الأندلس غيره... وكان ذلك درسًا تاريخيًا بأن من يتخلى عن أرضه، لن تمنحه الجدران حصنًا، ولا الكنائس خلاصًا.

العبرة

في ظلال شجرة التين، انتصر العقل على العُدة، والخطة على القوة، والإرادة على التحصين.

الفتح الحقيقي لا يبدأ بالسيف... بل بفكرة، بفطنة، بثغرة صغيرة يراها الذكي حيث لا يراها الآخرون.

"صقور الدولة...

الهجوم الذي دوى في قلب اوروبا

في صيفٍ لم يكن كسائر الصيف، والسماء تعجُّ بدخان المعارك والبحار تموجُ بأشرعة الغضب، انطلقت من إسطنبول صقور الدولة العثمانية بقيادة رجلٍ لا يعرف التراجع، ولا يبتسم إلا للنصر... اسمه: بالِي بك ملقوج أوغلو.

لم تكن الرياح التي هبّت على الدولة العثمانية تحمل السلام، بل جاءت محمّلة بتحرشٍ سافر من مملكة بولونيا التي تطاولت على أراضي البوغدان، فأشعلت بذلك شرارة معركة ستغير وجه القارة الأوروبية للأبد.

حين سمع السلطان بايزيد الثاني بالعدوان، نهض من مكانه، وبنظرة لا توصف إلا بأنها نذير عاصفة، قال: "لا يُجرب صبرنا أحدٌ مرتين."

وأصدر أمرًا بحملة بحرية ضاربة، يقودها الرجل الذي كان الناس يروونه في الحكايات كأنّه أسطورة... الرجل الذي كان يُقال عنه: "إذا تقدّم، تبعته القلوب قبل الجنود."

انطلقت الحملة، والسفن تقطع أمواج البحر وكأنها تكتب على صفحة الماء سطورًا جديدة من المجد، ووصلت إلى الشواطئ البولونية كالرعد الغاضب.

على أطراف مدينة بوكوفينا، اصطفت جيوش بولونيا، مدجّجة بالسلاح، عشرات الآلاف من الجنود، تظن أن كثرتهم ستكسر عزم المجاهدين. لكن بالي بك لم يكن من هؤلاء الذين يُرهبهم العدد، بل نظر نحو جنوده وقال:

"نحن لا نحاربهم بأجسادنا فقط، بل بروحِ الحق الذي معنا، ودعاء الأمهات في السحر."

ثم صاح صيحةً، اندفعت بعدها الخيول، وتحركت السيوف في رقصة الموت، وانقضّ المجاهدون على جيوش بولونيا كالسيل الجارف. لم تمر ساعات قليلة حتى كان الميدان صامتًا إلا من أنين الهاربين. آلاف العربات، آلاف الأسلحة، وكل ما امتلكته بولونيا تركته خلفها كطفلٍ هاربٍ من سوط العقاب.

لكن المجاهدين لم يتوقفوا.

دخلوا رادوم، ثم لوبلين، واقتحموا وارسو، العاصمة المتغطرسة. لم تعد المدن تقاتل، بل تفتح أبوابها، وكأنها تقول: "ارحمونا... لقد أخطأنا التقدير."

ووصلت الحملة حتى بحر البلطيق، هناك حيث كانت أوروبا تنظر بدهشة:

كيف فعلها العثمانيون؟ كيف اخترقوا قلب بولندا، وأجبروا ملكها على الفرار؟

لكن البطل لا يعيش النصر طويلًا في راحة.

في إحدى المعارك البحرية، حيث الموج لا يرحم، والسفن تصرخ بخشبها المتشقق، ارتقى بالِي بك ملقوج شهيدًا... سقط، ولكن قام التاريخ يحمله على كتفيه، يقول:

"هنا رجلٌ مات واقفًا... ليرفع أمة."

العبرة

في زمنٍ يُغري فيه الغرور الممالك الصغيرة لتناطح الجبال، لا ينجو إلا من يعرف قدره.

أما من يتعدّى حدّه، فعليه أن ينتظر بالِي بك جديد...

لأن هيبة الحق لا تُمس، وكرامة الأمة لا تُهان.

حين انحنى السلطان للعلم

في صباحٍ مشمس من ربيعٍ لم يعرف التاريخ مثله، كانت القسطنطينية تئنّ تحت أقدام الفاتحين. ارتفعت رايات الهلال على أسوار المدينة التي استعصت على ملوك الأرض لأكثر من أحد عشر قرنًا. كان الحصان الأبيض يشقّ الطرقات الضيقة التي امتلأت بأهالي المدينة، وعيونهم تفيض بالدهشة والرهبة.

يمتطي صهوة الحصان شاب في الثالثة والعشرين، عيناه تقدحان ذكاءً وعزمًا، وفي ملامحه هيبة لم يألفوها في ملوكهم السابقين. إنه محمد بن مراد، السلطان الذي هزّ عروش الممالك وقلب موازين التاريخ. يتقدّمه موكب من الجند والعلماء والوزراء، وتُفرش الطرقات بالورود، وتُرش العطور في الهواء احتفاءً بمن فتح المدينة التي كانت قلب المسيحية الشرقية.

بينما يسير الركب نحو "آيا صوفيا"، وقد ساد الصمت العجيب كأن الزمن توقف، برز رجل مسنّ بلحية بيضاء وعينين تلتمعان بالنور. كان آق شمس الدين، شيخ السلطان ومعلمه، يسير على فرسه بهدوء بجانب تلميذه.

وحين اقترب الأهالي يقدمون الزهور للفاتح، اختلط عليهم الأمر، فاندفعوا نحو الشيخ الجليل، ظنًّا منهم أن السلطان لا يمكن أن يكون ذاك الشاب الهادئ الواقف إلى جواره، بل لا بد أن يكون هو ذلك الشيخ الوقور.

أوقف آق شمس الدين فرسه خجلاً، وأشار إلى محمد الفاتح، وقال بصوت رخيم:

"ليس لي، إنما هذا هو السلطان محمد... هو صاحب الفتح."

ابتسم الفاتح بهدوء وقال:

"اذهبوا إليه ثانية، صحيح أنني السلطان محمد، لكن هذا شيخي... هو من رباني على الفتح، هو النور الذي أضاء طريقي."

لم يُغره المجد، ولم تَخدَعه الهتافات. في لحظةٍ كان العالم كله يُبجّله، أشار إلى أستاذه وقال: "الفتح له... لا لي."

ولم تمضِ إلا لحظات حتى وقف في محراب آيا صوفيا، وسجد لله شكرًا، فغابت سطوة الفاتح أمام خشوع العابد، وارتجّت أرجاء الكنيسة بنداء "الله أكبر"، وأيقن الحاضرون أن المدينة لم تُفتَح بالسيف فقط، بل بالإيمان والعلم والرحمة.

العبرة

ليس المجد أن تُفتح المدن، بل أن تفتح قلبك للتواضع.

وليس الشرف في تاجك، بل في أن تعرف من ألبسك إياه.

فكم من سلطان دوّخ الممالك، ولم يعرف أن أعظم فتوحه كانت حين انحنى للعلم.

ومن تواضع لله... رفعه.

"حين توقف الموكب أمام الحق"

في صباحٍ يضجّ بالبهجة والاحتفاء، خيّم الصمت فجأة على قاهرة المعز. الأبواب مفتوحة، الزينة مرفوعة، والناس بملابس العيد قد خرجوا جميعًا، ليس لاستقبال سلطان أو والي، بل لرؤية رجل... رجل عاد من الأسر، لا يحمل تاجًا ولا صولجانًا، بل هالةً من نور وصدق وعلم، اسمه: العِزّ بن عبد السلام.

كان يومًا يشبه الأعياد، لكن له طعم آخر.

فمن بين الزحام، خرج السلطان نجم الدين أيوب بنفسه، بموكب مهيب يليق بقدوم العلماء. أمراء، قادة، فقهاء، وركائب فاخرة جُهّزت لركوب الشيخ وعائلته، ودُفعت له دار وسط حديقة غنّاء، دفع ثمنها أهل مصر من حبّهم، لا من خزينة السلطان.

الكل علم أن القاهرة اليوم صارت مدينة لها قلب. قلب اسمه العز.

توقف الناس عن الفتوى بمجرد وصوله. الحافظ المنذري، فقيه الشام ومصر، قالها ببساطة: "كنا نفتي، أما الآن، فلا يليق لأحد أن يتكلم بحضرة هذا الإمام."

وتوالت المناصب على الشيخ: الخُطبة في جامع عمرو، وقاضي القضاة، وصاحب المجلس، والموعظة.

لكن...

الاختبار الحقيقي لم يكن في المجلس ، بل في الصدق مع الله.

ففي يوم عيد، خرج السلطان نجم الدين أيوب في أبهى حلله، يتقدم موكبه الكبير، الخيول تصهل، الجنود مصطفون، الأعلام ترفرف، والناس يتهامسون: "هذا هو سلطان مصر، من لا تُرد له كلمة، ولا يجرؤ أحد على مخالفة أمره!"

وفجأة، وسط الجموع، يتقدم شيخ سبقه بياض لحيته، وعلو جبينه، وقف أمام الموكب بلا رهبة.

ثم صاح بصوت نزع الأقنعة:

"يا أيوب!"

بلا لقب، بلا تمهيد.

توقفت الخيول، تجمد الهواء، وتسللت الدهشة إلى العيون.

تلفّت السلطان، والناس كأن الطير على رؤوسهم.

قال الشيخ:

"ما حجتك عند الله إن سألك: ألم أُملّك مصر، ثم أبحت فيها الخمر؟"

أجاب السلطان مذهولًا:

"يا سيدي، هذا من زمن أبي!"

فقال الشيخ:

"أأنت من الذين قال الله فيهم: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ...)؟"

وهنا... أمر السلطان بإغلاق الخمارة فورًا، دون جدال، دون مشورة.

وعاد الشيخ إلى درسه، وقد شُهد له بالنصر، لا على سلطان، بل على الخوف.

سأله أحد تلاميذه بدهشة:

"يا سيدي، كيف تجرأت عليه؟ ألم تخفه؟"

فابتسم الشيخ وقال....

"يا بُني، والله ما رأيته سلطانًا، لقد استحضرتُ هيبة الله فصغر في عيني حتى رأيته أقلّ من قط.
ولو كانت لي عنده حاجة من حوائج الدنيا، لرأيته الدنيا كلّها."

العِبرة

السلطان الحقيقي هو من يحكم نفسه قبل أن يحكم الناس.

ومن خاف الله وحده، ساد على من خافهم الناس جميعًا.

الهيبة لا تصنعها التيجان، بل تصنعها الكلمة إذا خرجت من قلب صادق لا يخاف إلا الله.

ومن جعل الله في قلبه عظيمًا، جعل الله كل عظيمٍ أمامه صغيرًا.

وعد تحت الأسوار

في قلب صيف قائظ من سنة 1134م، وتحت شمس أندلسية لا ترحم، كان الملك ألفونسو المحارب قد شد رحاله من أعالي أرجون، مدفوعًا بوعد قطعه أمام أسوار مدينة إفراغة: أن يدخلها فاتحًا أو يموت عند أبوابها. حمل في قلبه طموحًا لم يوقفه الحلفاء ولا الحروب الأهلية، ولا حتى تاريخه الثقيل مع ملك قشتالة الذي أعاقه لسنوات. الآن، لم يعد هناك ما يمنعه من التهام ما تبقى من الثغر الأعلى.

في الجهة المقابلة، كان هناك رجل آخر، يحيى بن غانية. رجل لا تلهيه الأحلام، بل تصنعه المعارك. لم يكن من الذين يبالغون بالكلام أو يغترون بالعدد. كل ما كان يملكه هو خمسمئة فارس من خيرة الرجال، وقلب لا يعرف التردد، وعقل لا يخون الميدان.

وصلت الرسالة من داخل إفراغة: "يا يحيى، إن لم تصل، فسنُسلِّم مفاتيح المدينة"، لكن الرسالة لم تكن إلا شرارة. فالرجل لم يكن بحاجة لتذكير، كان يعرف جيدًا ماذا تعني تلك المدينة، وماذا يعني سقوطها.

في ظلال الجبال وعلى ضفاف نهر سنكا، حيث انقسمت الأرض بين الصخر والنار، وقف ألفونسو المحارب يقود خمسين ألفًا، محاطًا بفرسان من فرنسا، وقشتالة، وبرشلونة، وعشرون من كبار سادته يقسمون معه أن لا يعودوا إلا وإفراغة تحت رايتهم. وأحضر معهم رفات القديسين، ودفع بالرهبان والأساقفة إلى الصفوف الأمامية. أرادها حربًا مقدسة. أراد أن يحولها إلى معركة خالدة.

لكن ما لم يعرفه ألفونسو هو أن مدينة صغيرة على ربوة عالية يمكن أن تكون ساحة لمجد لا يُنسى أو قبرًا لطموح لا يُغتفر.

المعركة اشتعلت. البداية كانت في صالح الصليبيين. تداعت جدران إفراغة، ونضبت الأقوات، وكتب أهلها نداء استغاثة يائس. غير أن الجواب لم يتأخر. جاء ابن غانية كالإعصار، وترك على وجه المعركة بصمته الأولى: ضربة مفاجئة، وسط القلب، حيث لا يتوقع العدو.

اندفع المسلمون من الداخل، من خلف الأسوار، واستدار سعد بن مردنيش والي المدينة، برجاله، وطعن ظهر العدو في لحظة حرجة. حينها لم يكن ألفونسو يقاتل فقط الجيوش، بل يقاتل الوعد الذي قطعه، والحلم الذي أفلت من بين يديه.

أبى أن يفر. رفض أن يتراجع. قال: "الفتح أو الموت." وتقدم بنفسه. لكن حين اقترب ابن غانية، واشتد الوطيس، وقُطعت أنفاس المعركة برماح ودماء، سقط ألفونسو، وتبع سقوطه تمزق جبهته، وتلاشت قلوب من حوله. كان وعده ثقيلًا، وكان الثمن قاتلًا.

سُحقت الجيوش الصليبية. ولأول مرة منذ الزلاقة، ارتفعت راية النصر في وجه طاغية حمل حقده على دين وكرامة وشعب بأكمله. واستعاد الناس أنفاسهم، وعادوا إلى قبورهم آمنين، يُرددون اسم ابن غانية، لا كبطل فقط، بل كجدار وقف بين الظلام والنور.

العبرة

في عالم يحكمه الطغاة بالحلفاء والجيوش والعهود الكاذبة، يبقى الوعد الأصدق هو ذاك الذي يُقطع للحق. ليس كل من أقسم عند الأسوار يفي، لكن من أقسم لله، ووقف لأجله، يُغيّر التاريخ وحده.

"قد تهزمك الجموع، لكن إن كنت واقفًا مع الحق، فالميدان لك لا لهم."

"سلام لم يُرَد"

في زمنٍ كانت فيه مصر تئن تحت وطأة الاحتلال الإنجليزي، وتُداس الكرامة في الأزقة والقصور، كان كثيرون يطأطئون رؤوسهم، لا لخشوعٍ ولا تواضع، بل ذلًّا وخوفًا من بطش المستعمر الجديد. وحده الأزهر، كان يقف شامخًا، كالمئذنة التي لا تُهدم، يعلنها علماؤه مدوّية: "لا خضوع لمن احتل الأرض ودنّس السيادة."

وفي يومٍ أراد فيه اللورد كرومر، مندوب بريطانيا الجبّار، أن يُسكت صوت الأزهر، زار شيخ الجامع الأزهر، العالِم الجليل الشيخ شمس الدين محمد الإنباني. لم يذهب إليه بدافع الاحترام، بل بتدبيرٍ سياسي خبيث؛ أراد أن يُظهر ودًّا كاذبًا أمام الناس، لعل الشيخ يلين أن يُخدع.

دخل كرومر على الشيخ، فوجد العالم جالسًا، تزين ملامحه سكينة المؤمن، وثبات العارف بالله. انتظر كرومر أن يقوم الشيخ احترامًا له، لكن الرجل لم يتحرّك، لم يرفع جفنًا، ولم يبدّل وضعه.

اقترب اللورد ومدّ يده، وقدّر أن الشيخ سيضطر إلى القيام لمصافحته. لكن المفاجأة كانت أن الشيخ، دون أن يتحرك من مكانه، مد يده بلا اكتراث، صافح اللورد وهو جالس، وكأنه يسلّم على ريحٍ عابرة.

شحب وجه كرومر. تهدّج صدره. كان على وشك الانفجار. أن يُهان بهذه الصورة من رجلٍ أعزل، فهذا ما لا يقبله كبرياءه الإمبراطوري. كاد يأمر جنوده بجرّ الشيخ من عباءته، لولا أنه أدرك: هذا الشيخ ليس مجرد شخص، بل رمزٌ لأمة، وصوته إذا ارتفع، سيكون شرارة تشعل الأزهر ومن خلفه الشعب.

فتصنع اللورد الهدوء، وتقدّم سائلاً بمكر:

– أيها الشيخ، ألستَ تقف للخديوي حين يدخل عليك؟

ردّ الشيخ بهدوء الواثق:

– بلى، أقف له، فهو رجلٌ منا، مسلمٌ مثلي، أُكرمه وأردّ تحيته.

ردّ كرومر وقد لمح الصاعقة قادمة:

– فلمَ لم تقم لي إذن؟

ابتسم الشيخ ابتسامة رجلٍ رأى الحقائق كلها، ثم قال بصوتٍ حادٍ كالسيف:

– لأنك لست منا. أنت غازٍ وعدو. لا أقوم لك، ولا أكرم عدوًّا يحتلّ بلادي ويذل شعبي.

تجمّد الهواء في المكان. تكسّرت الهيبة المزيفة للورد كرومر أمام بسالة العالم الأزهري. خرج المستعمر خاسئًا، يحمل في قلبه مرارة لم يذق مثلها في أي معركة، وفي عقله جملة لن ينساها:

"لستَ منا."

العِبرة

ليس في الدنيا شيءٌ أقوى من كلمة حقّ تُقال في وجه سلطانٍ جائر.

فقد يُهزم جيش، لكن رجلًا واحدًا يقول: "لا" بكرامة، يُرعب إمبراطورية كاملة.

"من لا يُرهِب الطغاة بموقفه، سيُرهب شعبه بصمته."

صوتُ العاصفة... راية الجهاد من بربرة إلى الجبال

في زمنٍ تشابكت فيه الأقدار بالبارود، وعلت صرخات المآذن فوق خيول الغزاة، انبثق من أعماق القرن الإفريقي رجلٌ يشبه الأساطير في حضوره، لكنّه من لحمٍ ودم، اسمه محمد بن عبد الله حسن، وأطلق عليه أعداؤه اسمًا ارتعدت له فرائصهم: زعيم الدراويش.

كان الزمن آنذاك مائعًا كالعجين، تتنازعه قوى أوروبية لا تشبع: بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، والحبشة، كلٌّ يريد حصة من جسد الصومال، كما تفعل الذئاب إذا أصيبت فريستها بالدوار. انتزعوا الموانئ، شطروا البلاد، بنوا الكنائس، واغتالوا اللغة والهوية.

عاد محمد من الحج وقدم إلى بربرة لا حاملاً تذكارًا من مكة، بل فكرة... فكرة تحرّك الشعوب كالأمواج، وتصنع من الكلمة قنبلةً تُدوّي في وعي الأمة. بنى مسجدًا، وألقى أول خطبة، فاهتزّ لها رجالٌ سئموا الذل، وشبابٌ تغنّى بالشهادة.

كان الإمام خطيبًا بالفطرة، ذا حُجّة تسحق صخور الريب، وفكرٍ يشعل الحماسة في عيون سامعيه. لم يكن رجلًا يُحب الثرثرة، بل يعرف أن من يصرخ كثيرًا يخسر كثيرًا. بدأ بتكوين نواة جيشٍ من أبناء القبائل، يدربهم ويزرع فيهم عقيدة "إما النصر أو الشهادة"، ولم يحتج إلى مصانع سلاح، فقد كانت الأيدي تبني، والقلوب تصدّق، والتجار العرب يُهربون البنادق كما يُهرب المحبون رسائلهم.

حشدت بريطانيا جيوشًا، أرسلت الضباط من مومباسا إلى عدن، من الهند إلى زنجبار، وتواطأ الأحباش، وانحنت بعض القبائل تحت الذهب الرخيص. لكن محمدًا كان يعرفهم جيدًا. وزّع قواته، وافتتح ملحمة جهاد استمرت لسنوات، حارب فيها أكبر تحالف أوروبي في القارة، وانتصر. هزم الحملات، قتل الجنرالات، وردّ الغزاة إلى مرافئهم وهم يندبون كرامة أُمّة استعمارية.

لكن الإنجليز لم ينسوا، فبعد الحرب العالمية الأولى، جاؤوا بما لم يجربه أحد قبله: الحرب من السماء. كانت الطائرات تزمجر في سماء الصومال، ترمي القنابل وتحرق الأرض والناس معًا. وقفت الخيول مذهولة أمام هذا الوحش الحديدي الطائر، ووقف الإمام، يُقاوم، يُخطط، ويهرب برجاله إلى حصونٍ جبلية لا يعرفها إلا الله والريح.

قُصفت المدن، أُسرت النساء، وأُبيد المئات، لكنه لم يُسَلِّم. وفي الليلة التي اشتد فيها الحصار، انسحب الإمام إلى بلاد الأوجادين، يصحبه ألف من رفاقه وجرحٌ في جسده أكبر من أن يُرى. وبين الجبال، في صباحٍ كئيب من نوفمبر 1920، توقفت أنفاسه... لا بطعنة عدو، ولا بندقية، بل مرضٌ لم يجد له الزمان علاجًا.

دُفن في قبرٍ لا يعرفه أحد، ولم تحصل بريطانيا على رأسه كما فعلت مع المهدي في السودان. مات الإمام... لكن صوته بقي.

العبرة

ليست المعارك دائمًا بالسيوف، بل أحيانًا بالكلمات التي توقظ أمة.

الإمام محمد لم يكن رجلًا من زمنه، بل من زمننا نحن...

لأن الحرية لا تموت إذا كانت تنبت في قلب رجلٍ صادق.

عنوان القصة:

صرخة في وجه العاصفة

في سهلٍ أخضرَ فسيحٍ اسمه "عين جالوت"، حيث تمتد السماء وكأنها تنتظرُ قرارًا من الأرض، أحاطت جيوش المسلمين بجيش التتار كما يحيط السوارُ بالمعصم. كانت لحظة مشحونة بالتاريخ والدم والنار، وكان كل شيء مهيأً لانفجارٍ لا يعرف الرحمة.

لم يكن التتار عدوًا عاديًا، بل وحشًا جائعًا اجتاح الأرض من أقصاها إلى أقصاها، تهاوت أمامه المدن والملوك والشعوب، حتى بات يُقال إنهم لا يُهزمون.

لكن في هذا اليوم، في هذا السهل الصامت قبل الزئير، وقف المسلمون صفًا واحدًا، يعرفون أن وراءهم أمة، وأمامهم مصير.

بدأت المعركة كالعاصفة، السيوف تتكلم بلغة النار، والسهام تصرخ في الهواء. حمية التتار كانت طاغية، وميمنتهم كانت كأنها رأس تنين يبصق اللهب. بدأ جناح المسلمين الأيسر يتراجع، الأرض تنزف شهداءً، والسماء تتابع.

رأى السلطان قطز المشهد، وهو لا يشاهد فقط، بل يشعر... يشعر بعظام جنوده تتكسر تحت سنابك الخيول، وبقلوبهم ترتجف من سُمعة عدوٍ قيل إنه لا يُقهر.

حاول الدعم، أرسل القوات الاحتياطية، لكن الضغط التتري كان مثل الطوفان. هنا قرر قطز أن يفعل ما لا يجرؤ عليه إلا من عانق الموت قبل أن يلقاه.

خلع خوذته، رمى بها على الأرض، وصاح صيحة زلزلت أرواح الجنود: "وإسلاماه!.. وإسلاماه!"

كان صوته كأنه قادم من أعماق التاريخ، يحمل وجع الأندلس، وصوت تكبيرات صلاح الدين، وأنين بغداد، ودموع الأطفال في حلب.

تقدم... لا بموكب ملك، بل بقدمي محارب. لم يكن سلطانًا في تلك اللحظة، بل كان أخًا وأبًا وابنًا في آنٍ واحد.

اندهش الجنود، كيف ينزل قائدهم بنفسه؟! كيف يخوض الموت وحده؟!

لكنها لم تكن وحده، فقد كان كل من على الأرض معه، وكان الله من فوقهم يراقب.

اشتعلت القلوب، وتحولت السيوف إلى أجنحة نور. ارتفعت صيحات "الله أكبر"، كأنها موجاتٌ تغمر السهل، وانقض المسلمون كما لم يفعلوا من قبل.

التتار الذين اعتادوا أن يخيفوا، باتوا يخافون.

والرماح التي اعتادت أن تطعن، أصبحت تتراجع.

وفي قلب الزحام، أُصيب فرس قطز، فترجل... ظل يقاتل ماشيًا، وجهه في الأرض وسهمه في السماء.

عرض عليه أحد القادة فرسه، لكنه قال بكلماتٍ لا تموت:

"ما كنت لأحرم المسلمين نفعك."

قاتل حتى أُتي له بفرس آخر.

وعندما لامه بعض القادة على المجازفة، ردّ عليهم بعينين من يقين:

"أما أنا فأطلب الجنة، وأما الإسلام، فله ربٌّ لا يضيعه."

نعم... الإسلام لا يُحمى إلا بمثل هؤلاء.

والأمم لا تنهض إلا إذا سقط قادتها في مقدمة الصفوف.

العبرة

في عالمٍ يحكمه الخوف، من يصرخ من أجل الحق أولًا... يشعل النور للأمة كلها.

وفي زمن الشك، القائد الذي يقاتل بنفسه، لا يُلهم الجنود فقط، بل يكتب فصلاً جديدًا في كتاب الخلود

القلعة التي بكت في الليل

في قلب السنغال، حين كانت الأرض تصرخ تحت أقدام المستعمرين، وكانت الشمس تسقط على الوجوه السمراء كأنها تكشف من يقاوم ومن يخون، كان هناك رجل اسمه لات ديور ديوب. لم يكن ملكًا بتيجان الذهب، بل كان ملكًا بإرادة لا تلين. وقف وحده في وجه فرنسا، التي لم تأتِ بيد حانية بل بسيفٍ مدمى، تلوّح به في وجه الإسلام، وفي وجه أفريقيا.

كان الفرنسيون يخططون لمد خط سكة حديد يمرّ من قلب مملكته، وكانوا يعتقدون أن المال والخوف سيجعلان أهل البلاد يُسَلِّمون. لكن لات ديور لم يرَ الحديد، بل رأى السلاسل. لم يرَ القطار، بل رأى طابورًا يسير بأقدامٍ مكبّلة نحو الذل. فأمر رؤساء قبائله: "من يعمل مع الفرنسيين، فليُعاقَب كخائن!"

خرج للمعركة لا لينتصر فقط، بل ليموت واقفًا. في معركة الحديد، وقف على السكة التي أرادوها رمزًا للتمدّن، فجعلها هو شاهدًا على الكرامة. قُتل هناك، ومعه أولاده، وثمانون فارسًا من أنصاره. ماتوا، لكن موتهم كان البداية.

من بعده بزغ نجم جديد... لم يكن ملكًا، بل شيخًا. محمد الأمين، رجل صوفي، لكنه لم يتعبد في الزوايا بل في ساحات القتال. كان خصمه هذه المرة ملكًا وثنيًا اسمه أحمدو، تحالف مع فرنسا طمعًا في الحكم. أدرك الشيخ الأمين أن ضرب أحمدو يعني ضرب جذور فرنسا في الأرض.

فبدأ من هناك. أعلن النفير، جمع الضعفاء الذين طحنهم الاستعمار في الطرق والسكك والمزارع، حولهم إلى جيشٍ من الغاضبين. لم يكونوا مدرّبين، لكنهم كانوا يملكون الإيمان. وفي عام 1886، أحاط بمدينة باكل كما يحيط الليل بحصنٍ من نار.

حاصر الشيخ المدينة، قطع المواصلات، وعزل الفرنسيين داخل أسوارهم. كانت لحظة النصر قريبة، أقرب من النفس... لكن القدر كان له رأي آخر. قذيفة واحدة سقطت على خيمته، فهزّت الأرض ومن فيها. تفرّق الجنود، وضاعت اللحظة.

لكن الشيخ لم يستسلم. بدلًا من الجيوش، قاد حرب عصابات. هاجم، انسحب، فاجأ، واختفى. الجبال أصبحت قلعته، والليل أصبح درعه. لكن الأعداء لم يكونوا فقط من الخارج. بعض أبناء جلدته خانوا، أرشدوا الفرنسيين إلى ممرات الجبال، فكان الحصار، وكان السقوط.

في إحدى المعارك، استشهد الشيخ. استشهد بعد أن قاتل حتى آخر طلقة، وآخر نفس. مات، لكن لم يمت وحده. ماتت معه المقاومة، مؤقتًا، ومات معه الأمل، ليولد لاحقًا بشكلٍ أقوى، وأوسع، وأرسخ.

العبرة

في معارك التحرير، لا يقاتل الناس بالسلاح فقط، بل بالعقيدة، بالكرامة، وبالإيمان بأن الأرض لا تُعطى بل تُنتزع. لات ديور مات على السكة التي رفضها، والشيخ الأمين مات في الجبل الذي آواه، لكنّ قصتهم لم تمت.

في زمن تتبدل فيه الأسماء وتبقى المعاني، يبقى الأبطال منارات. لا لأنهم انتصروا، بل لأنهم رفضوا الهزيمة.

الضربة التي صنعت الفاتح

في زوايا مدينة أدرنة الهادئة، حيث تترامى مآذن المساجد وسط السحاب، ظهر رجل نحيل المظهر، شديد البأس، طويل العمامة، يدرّس في المساجد والزوايا، يعلم الناس لغة العرب، ويربي أبناء الأغنياء وكأنهم فلذات كبده. لم يكن غنياً ولا صاحب جاه، لكنه حمل هيبة الملوك في صمته، وذكاءً لا يُقاوم في عينيه. اسمه: الشيخ أحمد بن إسماعيل الكوراني، القادم من تبريز، والذي سيُغيّر وجه التاريخ بضربة واحدة فقط.

وصلت أخبار هذا الشيخ الغريب إلى مسامع السلطان العثماني مراد الثاني، وكان السلطان قد أُصيب بخيبة أمل عميقة من ولده محمد، ولي العهد، الذي ضيّع وقته بين اللهو وتصفيف الشعر أمام المرايا، وكأنه لا يُعد ليكون فاتحاً، بل مغنياً من مغنيي القصور!

جمع السلطان وزراءه، وبنبرة غاضبة قال: "أريد رجلاً لا يخاف غضبي، رجلاً يُعيد إلى ابني وقار الملوك وعزائم السلاطين!"، فقيل له: "إن أردت ناراً توقظ الحديد، فاطلب المولى الكوراني".

نُقل الشيخ إلى ولاية مغنيسيا حيث يقيم الأمير الصغير. دخل عليه دون أن يستأذن، وبيده عصا غليظة تقطر مهابة، فوجد محمد جالساً أمام المرآة، ينظر إلى خصلة شعر تمردت عن بقية خصلات رأسه، فحاول تهذيبها بإبرة ذهبية. التفت دون اكتراث وقال:

"من هذا العجوز؟ شيخ آخر؟ كم واحداً سبقك يا رجل؟"

رفع الكوراني العصا، ونظر إليه نظرة لو رآها حجر لانشق، وقال:

"أرسلني والدك لأجعل منك سلطاناً، أو أُكسرك قبل أن تكسر هيبة العثمانيين."

ضحك الأمير. لم يكن يدرك أن هذا الشيخ ليس كغيره. ولم ينتظر الكوراني إذنًا، بل رفع عصاه وهوت على ذراع الأمير ضربة هزّت أركان القصر. صرخ محمد:

"ذراعي! كسرت ذراعي!"

ووُضعت في الجبس، ولكنها لم تُكسر وحدها... كُسر معها غروره، كُسر الطفل المتدلل، وانبعث رجل من تحت الرماد.

منذ ذلك اليوم، بدأ الأمير يستيقظ قبل الفجر، يردد الآيات، يكتب بالحبر حتى يتلطخ ثوبه، ويطلب الدروس حتى في مرضه. أحب الكوراني، لا لأنه كسر ذراعه، بل لأنه أعاد بناءه من جديد. وفي أقل من عام، ختم القرآن، وحفظ آلاف الأحاديث، وقرأ سير الفاتحين. صار اسمه يُهمَس به في المجالس: "محمد... سيكون شيئاً عظيماً".

وحين كبر، كبر معه الحلم. وذات يوم، وقف محمد الفاتح أمام أسوار القسطنطينية، وقد صمتت المدافع لحظة، فقال لمن حوله:

"لو لم أُربَّ على يد الكوراني، لبقيت أمام المرآة حتى اليوم."

العبرة

أحياناً، نحتاج ضربة واحدة فقط... ضربة توقظ العملاق النائم فينا. وقد تكون أقسى لحظة في حياتك، هي اللحظة التي تبدأ بها الحياة من جديد.

الرجل الذي أخاف التاريخ"

في شتاءٍ ثقيلٍ من شتاءات الحرب العالمية الأولى، كان الدخان يتصاعد من سواحل مضيق جناق قلعة، والسماء مثقلة برائحة الحديد والبارود. تقدم الأسطول الإنجليزي-الفرنسي يحوم كضبع جائع، يسعى للانقضاض على قلب الدولة العثمانية... إسطنبول.

في قصر "بكلربكي"، كان السلطان عبد الحميد الثاني –المخلوع، الأسير، الذي قضى أعوامه الأخيرة تحت رقابة الاتحاديين– جالسًا على كرسيه، ولكن لم يكن هناك شيء في ملامحه يدل على الضعف أو الاستسلام. كان في السبعين من عمره، لكن هيبته لا تزال كما كانت يوم تولى عرش الخلافة.

في الطرف الآخر من المدينة، جلس رجال الاتحاد والترقي في ارتباك. كان الخوف قد بلغ الحلقوم. إذا سقط المضيق، سيسقط كل شيء. تقرر نقل السلطان محمد رشاد وأركان الدولة إلى أسكي شهر، وهناك... في وسط الأناضول، سيواصلون "القيادة" من بعيد. كل شيء كان مرتبًا. إلا أن هناك مشكلة اسمها: عبد الحميد.

فهو، رغم خلعه وسجنه، لا يزال شبحًا يخيفهم... هيبته وحدها قادرة على إرباك خططهم.

أُرسل وفد رفيع إلى القصر، يتقدمه طلعت باشا وزير الداخلية، يرافقه توفيق بك وفخر الدين أغا. وعندما دخلوا على السلطان، وجدوه شامخًا، صامتًا، كأنّ على كتفيه ذاكرة قرون.

نظر إليهم وقال بصوت هادئ كالسيف:

- ما جاء بكم يا طلعت؟

أخذ طلعت نفسًا عميقًا، وبلغةٍ مُنمقةٍ شرح الموقف:

- سيدي السلطان، العدو يزحف، والوضع بالغ الخطورة، إنّ السلطان والحكومة قرروا الانتقال إلى الأناضول، وهذا إجراء احترازي لحماية الخلافة...

ظلّ السلطان يستمع دون أن يرمش، حتى أنهى طلعت كلماته.

عندها، رفع عبد الحميد عينيه، وحدّق في عيونهم واحدًا واحدًا، ثم قال بصوتٍ كالرعد:

- أنتم تخشون الأسر؟ أنتم تخافون الموت؟ إذًا ما شأنكم بالسلطنة؟! إن سقط المضيق –ولا أظنه يسقط– فواجبي كسلطان ألا أهرب، بل أن أموت واقفًا في ساحة المعركة. هكذا يكون الرجال.

هل سمعتم عن الإمبراطور قسطنطين؟! لم يهرب حين جاءه جدي محمد الفاتح، بل قاتل حتى سقط. نحن أحفاد الفاتح، فهل سنكون أقلّ شجاعة من عدوّه؟!

سكت لحظة، ثم أكمل بصلابة:

- لن أغادر هذا المكان. وسيموت العدو قبل أن يمرّ من هنا.

ثم استدار، وتركهم واقفين كمن لدغتهم الحقيقة.

خرج طلعت باشا وهو يتمتم:

- لقد أخذنا نصيبنا!

وبالفعل، تراجع السلطان رشاد عن خطة الفرار، وتوقف الحديث عن الأناضول. أما العدو... فلم ينجح في عبور جناق قلعة قط.

العبرة

الرجال لا يُقاسون بالمناصب، بل بالمواقف.

العرش لا يحمي صاحبه... بل صاحبه هو من يجب أن يحمي العرش.

عبد الحميد لم يكن سلطانًا فقط، بل كان آخر جدار وقفت عليه هيبة الخلافة.

وهكذا... كان الرجل الأسير هو من أخاف التاريخ.

الراية المقدسة... وصوت الرصاصة الأخيرة

في صيف حارق من سنة 1716، كانت أوروبا تغلي على جمر حقدٍ دفين، وبدأت تلوّح بيدٍ واحدة باسم الربّ لشنّ حرب لا تعرف عدلاً. البابا يبارك، والفرنسيون يتقدّمون، والبنادقة ينهضون من سباتهم، والنمساويون يجهّزون جيوشهم، أما ألمانيا، فأرسلت فارسها الأشهر: الأمير أوجين كونت سافوي، رجل انتصر سابقًا على الدولة العلية، ويريد أن يكرر النصر على أنقاض بلغراد.

التحالف الصليبي الجديد، كأفعى ذات رؤوس، كان هدفه واضحًا: دكّ أبواب الدولة العثمانية، وإسقاط بلغراد، وفتح الطريق نحو إسطنبول.

لكن ما لم يكن في حسبانهم، أن الراية المقدسة لا تزال تُرفع.

في إسطنبول، حين وصلت الأخبار إلى السلطان أحمد الثالث، لم يكن هناك مجال للتردّد، فأمر بإعداد الجيش، وأسند القيادة إلى الأسد المجاهد: علي باشا قومرجي، الرجل الذي لا يعرف غير ميادين القتال سكنًا.

تحرّك علي باشا كالإعصار، يقود مائة ألف مقاتل، بل يزيد. وفي الوقت ذاته، كان الأسطول العثماني بقيادة جانم محمد باشا يُمطر البنادقة نارًا في البحار، ويشعل النيران في سفنهم حتى لم تبقَ راية لهم على الماء إلا واحترقت.

على اليابسة، كان جيش قومرجي يزحف بثبات صوب بلغراد، ثم يعبر نحو المجر. وفي يوم قائظ من أيام أغسطس، اصطدمت الجيوش وجهاً لوجه عند قلعة "وارادين". كان الفجر يميل على خد السماء، حين بدأت الجيوش تتحرّك... وكانت تلك بداية المجزرة.

أطلق الأمير أوجين صرخته، فاندفعت الخيول الصليبية نحو الصفوف الأولى من الجيش العثماني. تترٌ ومصريون، أرناؤوطٌ وإنكشارية... وكان المشهد أشبه بعاصفة رعدية من السيوف والدم.

صمدت الصفوف، ثم انهالت الصاعقة.

الإنكشارية، أولئك المحاربون الذين لا يعرفون التراجع، شقّوا الصفوف النمساوية، ونشروا الفوضى في قلب الجيش العدو. وكاد النصر أن يُكتب، لولا غدر الخيالة من الخلف، بأوامر من الأمير أوجين.

في قلب ساحة المعركة، حيث الدماء تختلط بالغبار، كان علي باشا قومرجي يقف تحت الراية المقدسة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم. لم يهرب، لم يتراجع، لم يأمر بالانسحاب، بل خاض القتال بنفسه، كأنما كان يبحث عن الشهادة.

حين علم بسقوط الجناح الأيمن، لم يغضب، بل شدّ لجام جواده، ونادى في جنوده:

"هلمّوا، إن كنّا سنموت اليوم، فلنمت ونحن نحمل راية النبي لا نهرب بها!"

انطلق علي باشا كالصقر، واخترق قلب الجيش الألماني، وأحدث مقتلة هزّت أركان التحالف، لكن... في لحظة خاطفة، أصابت رصاصة غادرة جبينه، واخترقت روحه الطريق نحو السماء.

سقط الباشا، وسقطت معه هيبة العدو، لكن الجيش تراجع، وبلغراد سقطت.

لم تبكِ الدولة فقط بلغراد، بل بكت فارسها الأخير.

العبرة

لم يكن علي باشا مجرد قائد، بل كان معنىً حيًا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها."

كان يعلم أن المعركة قد تُخسر، لكن القتال بشرف، والموت واقفًا، خيرٌ من الحياة راكعًا.

ولذا، حين تطوى صفحات التاريخ، لا يُذكر أسماء الفاتحين فقط، بل يُذكر الرجال الذين صانوا الكرامة بدمائهم...

أمثال علي باشا قومرجي.

"الراية المقدسة لم تسقط... بل ارتفعت إلى السماء مع روح القائد."

"العدل الذي جاء من البحر"

في صباح رمادي هادئ، رست سفينة عثمانية على ضفاف البوسفور، محمّلة بأسرى تتباين ملامحهم، لكن بينهم رجل تجاوز الخمسين من عمره، يلبس عمامة بسيطة وثوباً من الصوف المهترئ، ويمشي بخطى الواثق، لا كسيرًا ولا خائفًا.

كان اسمه أحمد جلبي، قاضٍ من بلاد القرم، رجل اشتهر بالعدل والورع والزهد. لم يُؤخذ أسير حرب، بل أُخذ على حين غفلة ضمن حملة تهجير نظمها أحد قادة الجيش. قيل للناس إنها إجراءات أمنية، وقيل إنها سياسة لتسكين القسطنطينية بعد فتحها، لكنّ أحمد لم يسأل، ولم يشكُ. فقط سكت، وقال في قلبه: "الله أعلم حيث يجعل رسالته."

وصل الخبر إلى السلطان محمد الفاتح، الرجل الذي فتح القسطنطينية وهو في الرابعة والعشرين، فغضب غضب الملوك الذين لا يرضون بالظلم، وطلب أن يُحضَر هذا العالم أمامه، لا كمتهم، بل كضيف مكرّم.

دخل القاضي أحمد على السلطان، ولم ينحني كما يفعل غيره، بل وقف معتدلاً، صامتًا، ونظر في عيني السلطان دون خوف.

قال السلطان:

- "سامحنا أيها القاضي، فقد أخطأنا في حقك، وكان الأولى أن نستقبلك بالعلم والكرامة، لا أن نُرعبك بالسفن والسيوف."

أجاب القاضي، وصوته كنسيم الفجر:

- "إنما الناس بين مغرور بالسلطة، أو مأجور بالصمت. وأنا لست هذا ولا ذاك. وحُسن لقاءك يُكفيني."

ابتسم السلطان، وقال لوزيره محمود باشا:

- "أكرموا الرجل، فهو عدلٌ يمشي على الأرض. وأعطوه جبةً مطرزة، وقفطانًا مذهبًا، وأرضًا يعيش منها هو وأهله ما حيوا."

حينها، دمعت عين القاضي، وأراد أن يُقبّل يد السلطان، لكن الفاتح سحب يده وقال:

- "لا تُقبل اليد التي تُنصف، بل تُصافح."

وقبل أن يُغادر القاضي، أمر السلطان بتجهيز سفينة خاصة تُعيده إلى دياره، لا كأسير، بل كضيفٍ مكرّم من قلب الخلافة إلى أعماق القرم.

العبرة

لم تكن قوة الدولة في عدد جنودها، بل في عدلها.

ولم يكن سلطانها عظيمًا لأنه فتح المدن، بل لأنه فتح قلبه لقول الحق.

وحين يُكرّم العلماء، يَعدِل السلاطين، وحين يصمت العلماء، يَفسد الحُكم.

فيا أهل العلم، عودوا، فالأمة في انتظار رجال يُشبهون القاضي أحمد جلبي...

"نارٌ من قلب دمشق"

في غياهب الحصار، حين اختنقت مدينة عكا تحت أنفاس الأبراج الصليبية الهائلة، كانت السماء تُمطر خوفًا، والأرض ترتجف من قرع طبول الغزاة. ثلاثُ أبراجٍ خشبية عمالقة، محصنة بالجلود والخل والطين والأدوية العجيبة التي تمنع النار من أن تلامسها، تقف كوحوش فولاذية تزحف ببطء نحو السور، تعجّ كل طبقة منها بجنود مدججين، يرمقون الداخلين والخارجين بعين الذبح.

كان الجنود في الداخل على شفا الجنون. أملهم الأخير كان صلاح الدين الذي يقاتل على أطراف المدينة بكل ما أوتي من جهدٍ ونار. لكن الأبراج تقهقه من علٍ، ولا نفط يُجدي ولا سهمٍ يُجدي.

في هذه اللحظة التي شابهت النهاية، ظهر شابٌ دمشقي. عليّ، ابن عريف النحاسين، شاب نحيل لكن الشرر في عينيه يختصر كل مآسي الشام، وكل نبضات الخوف المتجمعة في قلوب الناس. جاء علي إلى صلاح الدين، عارضًا عليه فكرةً مجنونة: "أوصلني إلى عكا، وسأحرق الأبراج الثلاثة بنفسي."

نظر السلطان في عينيه، فقرأ فيهما صدقًا لا يُشترى. أمر ابنه الأفضل بقيادة فرقة خاصة لتأمين عبوره. تحت وابل السهام وتفاصيل الموت، عبر علي الأسوار ووصل إلى بهاء الدين قراقوش والي عكا، الذي كان يُصارع بقايا الأمل في صدره.

قال له علي بثقة: "اترك لي أمر هذه الوحوش، لكن امنحني فرصةً واحدة." تردد قراقوش، فقد جُرِّبت النار والنفط وكل ما أمكن، لكن حين يكون الأمل الأخير شابًا يحمل نارًا في قلبه قبل يديه، فلا مجال للرفض.

رُميت أولى القِدر، صمتٌ مطبق، والفرنج يضحكون. الثانية، صمتٌ آخر، لكن الثالثة... كانت العاصفة. اشتعل البرج، وبدأت النيران تتراقص على جلودهم وحصونهم، تلتهمها طبقة طبقة، صرخة تلو صرخة، وسقوط بعد سقوط. ثم احترق البرج الثاني، فالثالث. وتحولت الأبراج الثلاثة إلى مشاعل انتقامٍ من السماء، لا تُبقي ولا تذر.

فرح المسلمون، وبكى قراقوش من الفرج. وحُمل عليّ على الأعناق إلى صلاح الدين. هناك، وسط هدوءٍ بعد العاصفة، قال له السلطان:

"قد أديت ما عجز عنه جيش، وسأهبك مالًا وجاهًا وإقطاعًا."

فقال عليّ:

"يا مولاي، ما خرجتُ من دمشق لأعود بذهب، بل لأعود بوجهٍ يبتسم لي الله يوم ألقاه."

فسقطت دمعة من عيني صلاح الدين، وأمر أن يُكتب اسم هذا الشاب في دفاتر التاريخ بحبر النار لا بالحبر.

العِبرة

حين يُخلص القلب، تطيعُه النار.

وحين ينهض الشاب المؤمن، ترتجف الأبراج.

في كل زمن، نحتاج عليًّا جديدًا... لا يحمل نارًا فقط، بل يحمل الإخلاص الذي لا تُطفئه الدنيا، ولا يُؤجّله الانتظار.

مطر الأرخبيل: حين دوّى صوت البحر بالله أكبر

في زمانٍ نسي فيه الناس أن البحر قد يشهد ملاحم لا تقل عظمة عن البر، وفي قرنٍ خُطّ فيه المجد بمجاديف المجاهدين، خرج من سواحل الشام شابٌ اسمه ليو، لا يشبه اسمه ملامحه ولا ديانته أصله. لم يكن يونانيًا، بل كان أسدًا إسلاميًا يزأر من على ألواح السفن، يتنفس ملح الموج، ويغتسل بعرق المجاهدين.

نشأ ليو في طرابلس، على ساحلٍ يرى فيه البحر لا كخليجٍ للسباحة، بل كميدان حربٍ لا يتقنه إلا الجسور. أحب ركوب البحر كأن فيه نجاته، وتعلّم فنون القتال بين زبد الأمواج، لا بين كتب الشريعة أو كهوف التصوف. لم تكن حياته دربًا سهلًا، بل كان يواجه الصخر باللحم والريح بالعزم، حتى أصبح اسمه يُهمس به في حلقات المجاهدين كأملٍ مائيٍ يسري مع المدّ.

حين استقر في طرسوس، كانت المدينة تغلي برجالٍ لا يعرفون الخوف، فوجد ضالته بينهم، وجمع من حوله عصبةً من أشرس البحّارة، لا يحكمهم غير حب الله والسيف والموج. فأسس من هناك أسطوله، وراح يُخطط لحلمه الكبير: أن يدخل تسالونيكا، قلعة بيزنطة البحرية، في وضح النهار، ويرفع فوق أبراجها راية التوحيد.

وفي سنة 291 هـ، غادر ليو شواطئ طرسوس مع أربع وخمسين سفينة، كل واحدة منها تحمل مائتي مجاهد، والقلوب على يقين أن الله مع من أخلص له. في الطريق، انضم إليهم فرسان البحر من كل صوب: من الإسكندرية، ومن جزائر الروم، حتى صار الأسطول ككتيبة من نار.

وصلوا إلى مياه تسالونيكا، المدينة التي ترتجف جدرانها حين تسمع صوت المجاهدين. فزِع أهلها، وراحوا يستغيثون بقبر قديسهم، كما يستغيث الغريق بخشبةٍ مهترئة. أما ليو، فكان يدرسهم بنظراتٍ باردة كعيون الموج، يختبر دفاعاتهم، يراوغهم بهجماتٍ صورية، فقط ليعرف مواضع الوهن.

وفي فجرٍ غائم، أمر ليو بربط السفن زوجًا زوجًا، وأقام فوقها أبراجًا خشبية محمولة، جعلها كالكباش المائية. ومع أول خيط للضوء، انطلقت تلك الأبراج إلى الجدران، تشتعل فيها صيحات "الله أكبر" من صدورٍ لا تخشى الموت. تصدّى البيزنطيون، وسقط رجال من الطرفين، لكن

بحارة الإسكندرية اقتحموا الأسوار، وفتحوا أبواب المدينة، فانهمر المجاهدون كالطوفان، يطهرون المدينة من الصليب، لا طمعًا في مال، بل وفاءً لعهدٍ مع السماء.

غنموا غنائم لا تُعد، وأسروا اثنين وعشرين ألفًا، لكن الهدف لم يكن الذهب ولا الرقيق، بل استبدال الأسرى المسلمين، أولئك المنسيين خلف قضبان بيزنطة، الذين انتظروا أنفاسًا كالتي في صدر ليو، لتعيدهم إلى ديارهم. وعاد ليو إلى طرسوس، منتصرًا لا كفاتحٍ يبحث عن المجد، بل كعبدٍ يؤدي رسالة.

العبرة

كان ليو الطرابلسي رجلاً من زمنٍ نادر، آمن أن البحر ليس فقط للحيتان، بل للفرسان. لم تكن معاركه لأجل سلطة أو شهرة، بل لأجل كلمةٍ تُقال كل فجر: "الله أكبر". وما بين شجاعة القلب ودهاء العقل، سطّر سيرةً تُدرّس، لا تُنسى. إن أبطال هذه الأمة لا يولدون فقط على اليابسة، بل أحيانًا يولدون فوق سفينة تهزها الأمواج...

فيا شباب اليوم، إن كان بحر الأرخبيل قد سمع صيحاتهم، فكيف لا يسمعكم التاريخ إن صدقتم؟

ولا تنسوا... من عاش للحق، مات خالدًا.

"حين مشت السفن على اليابسة"

في فجر يومٍ بارد من ربيع الأول سنة 857 للهجرة، كان صوت التكبير يعلو السماء ويهز الأرض تحت أقدام رجال يحملون على أكتافهم تاريخ أمة بأكملها. لم يكن هذا الزحف نحو القسطنطينية مجرد فتح لمدينة، بل وعد نبويٌّ يُبعث من قلب الزمان.

في مقدمة الجيش، كان السلطان محمد بن مراد، الفتى العشريني الذي ورث المجد والعزم، يسير بخطى ثابتة، وبقلب نابض بالإيمان. خلفه علماء يقرأون القرآن، وشيوخ يلهجون بالدعاء، وفرسان شدّوا الأزر كأنما يسابقون الريح.

لكن البحر كان مغلقًا بسلاسل ضخمة من الحديد، تفصل بين الجيش ومراده. الخليج مغلق بإرادة البشر، لكن إصرار المؤمنين لا تعترف بالعوائق. هنا، خطرت للمسلمين فكرة خارجة عن منطق الحرب: سيجعلون السفن تمشي على اليابسة!

جذوع الأشجار تُقطع، الأرض تُدهن بالزيت والدهن، والليل يُخفي أصوات الجهد واللهاث. وفي ليلة واحدة فقط، سُحبت السفن من فوق الجبال، وتسللت بهدوء إلى الخليج المنيع كأنها أطياف من نور، لتصحو المدينة على مشهد لم تشهده منذ نشأتها.

وقف الإمبراطور قسطنطين مشدوهًا، عاجزًا عن الفهم: "أهذه معجزة؟ أم جنون؟ أم عقاب من السماء؟". لا، إنه الإيمان حين يشتعل في قلوب الرجال.

السلطان الشاب لم يكن يخطو بعشوائية. قبل الهجوم، صام، وأفطر بين جنوده، يذكرهم بحديث نبيهم: "لتفتحن القسطنطينية..."، ويأمرهم بعدم مس الكنائس ولا التعرض للرهبان ولا قتل شيخ أو طفل.

وفي فجر ذلك اليوم، حين ارتجّت الأرض من وقع أقدام الغزاة وصوت المجانيق وصيحات "الله أكبر"، كان الفاتح وسط الجنود، يصيح بهم: "من أراد الشهادة فليلحق بي!"، فلم يتخلّف منهم أحد.

اشتد القتال، وتكسّرت السلالم، وسقط المجاهدون شهداء على أسوار المدينة، لكن لم يسقط اليقين. وعندما سقط قادة الصليبيين، ورفرفت الرايات الإسلامية فوق الأسوار، خرّ السلطان ساجدًا، يبكي لله شكرًا.

دخل المدينة لا كفاتح متغطرس، بل كعبد خاشع. لجأ السكان إلى الكنائس، فآمنهم. لم تُمس معابدهم، بل ازدهرت تحت راية العدالة. وأمر السلطان بتحويل كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد، لا كاحتقار، بل كرمز لتحول عظيم.

ثم أمر ببناء مسجدٍ عند قبر الصحابي أبي أيوب الأنصاري، الذي مات قبل قرون على أسوار هذه المدينة، كأنما كان ينتظر هذا اليوم.

العبرة

ليست الحرب شجاعة فقط، بل رؤية وإيمان وذكاء. ليست القوة في السيف، بل في القلب الذي لا يخاف الموت. القسطنطينية لم تسقط في يوم، بل سقطت عندما وُجد جيلٌ قرر أن يصنع التاريخ بدل أن يقرأه فقط.

هذه القصة تقول لك: لا شيء بعيد على من يخطط ويصبر ويؤمن. فالسفن تمشي على اليابسة حين يُراد لها أن تمشي.

"طعنة في خاصرة البنغال: حين سقطت الجبال بالخيانة"

لم يكن البحر هو وحده من حمل الخطر إلى الهند، بل كانت السفن الإنجليزية تمخر عبابه وهي تحمل في بطونها نيران الاستغلال وبذور الطمع، وجحافل المستعمرين الذين جاؤوا لا ليشتروا التوابل، بل ليسرقوا المجد ويقتلوا الروح.

في البنغال، حيث النمور تسكن الغابات، وحيث الأنهار تنساب كالحرير في الحقول، كان هناك أمير شاب، ليس كباقي الأمراء. اسمه سراج الدولة، وفي عينيه نار، وفي قلبه إيمان. لم يكن ينظر إلى الإنجليز كتجار، بل رآهم كما هم: غزاة مقنعون.

في زمن كانت فيه الهند تترنح تحت وطأة الطمع البريطاني، وحيث بدأ الإنجليز يتعاملون مع الهندوس لتقوية نفوذهم على حساب المسلمين، وقف سراج الدولة كالرمح المستقيم، وقال: "إن لله رجالًا، وإنني منهم". وقرر أن يوقف المد قبل أن يتحول إلى طوفان.

شن هجومًا خاطفًا على المراكز البريطانية، واستولى على الحصون والأسواق، حتى بلغ حصن "وليم"، وهو أشبه بقلب الوحش، ففتحه. كان النصر يلوح في الأفق، وكانت صيحات المسلمين ترجّ البنغال.

لكن الشيطان لا ينام، والإنجليز لا يحاربون فقط بالسلاح. إنهم أساتذة الخيانة.

زرعوا الذهب في قلوب الضعفاء، فاشتروا بها الولاء. وسقط مير جعفر، قائد من قادة سراج، وزوج ابنته، فباع المجد بلعاعًا، وأسلم الأمير للقدر.

وفي بلاسي، في ذلك اليوم الحار من سنة 1757م، اصطفّت الجيوش. من جهة: المسلمون يقودهم الأمير المجاهد. ومن الجهة الأخرى: تحالف الإنجليز والهندوس... والخونة.

دارت المعركة، وكان للمسلمين فيها صبر الأسود، وثبات الصخور. ولكن حين جاء وقت الحسم، التفت الأمير فلم يجد ظهره محميًّا. خان مير جعفر، وتوقف الجناح، وسقطت الجبهة.

انهار الجيش، لا لضعف، بل لطعنة.

أُسِر الأمير سراج الدولة، وجرّوه إلى العار. لكنه لم ينكسر. عذّبوه، ثم قتلوه، ودفنوه بعيدًا عن الناس، قريبًا من الله.

ونصّب الإنجليز مير جعفر حاكمًا، وما علم أن الكرسي الذي جلس عليه هو ذاته منصة الإعدام، ولكن مؤجل.

العبرة

ليس أشد على الأمة من عدوها، بل من الخائن في صفوفها.

فالخيانة لا تهزم الرجال فحسب، بل تمحو الأوطان، وتبدّل الرايات، وتكتب التاريخ بالحبر الأسود.

وقد علّمنا سراج الدولة أن الهزيمة ليست في أن تُؤسر، بل في أن تفرّط في الشرف.

وأن المجد لا يُشترى، بل يُبنى بالنار والإيمان.

وسيذكره التاريخ، لا لأنه انتصر، بل لأنه قاوم... حتى النهاية.

قبرص... حين اشتعل البحر غضبًا

في بحرٍ لم تهدأ أمواجه، كانت جزيرة "قبرص" تعيش على أنين البحر وصراخ الأسرى. لم تكن سوى عشٍ للقراصنة البندقيين، الذين استباحوا السفن، ونهبوا القوافل، وأسروا المسافرين، بل وامتدت أيديهم السوداء إلى سفن الحجيج، يُقتلون أو يُباعون كأنهم بلا قيمة. البحر الأبيض لم يعد أبيض... بل احمرّ من كثرة الظلم.

في قصره العثماني، وقف السلطان سليم الثاني شاردًا، يتذكّر كلمات أبيه السلطان العظيم سليمان القانوني:

"يا بني، إن لم ييسر الله لنا فتح قبرص، فإني أدعو أن ييسرها لك."

وقد كان.

مرّت سنة ونصف على توليه العرش، حتى اتقدت شرارة القرار:

"قبرص لن تكون مأوىً للذئاب بعد اليوم."

استدعى وزيره لالا مصطفى باشا، ومعه القائد البحري الشجاع بيالي باشا. في جلسة سرية ممتلئة بالحزم والخطط، رسموا خط الهجوم، وحددوا أهدافهم:

طرد القراصنة

تأمين البحر

إعادة الأمان للطرق التجارية

وتطهير قبرص من الفساد.

وفي 15 مايو 1570م، انطلقت الحملة البحرية العثمانية من اسطنبول، والناس يلوّحون خلفها، يبعثون الدعوات كالسفن الطائرة إلى السماء.

وعندما وصلت سفنهم شواطئ ليماسول، لم يكن الوقت للراحة. سقطت القلاع، تهاوت المدن الواحدة تلو الأخرى:

قلعة لافتاري... كيرنا... لفكوشا... حتى بقيت قلعة واحدة، كأنها آخر معاقل الظلم:

قلعة ماكوسا.

بداخلها، كان الحاكم البندقي نيكولا داندولا يتحصّن، يُحصي أيام الحصار الثقيلة، ويشتم رائحة النهاية. استدعى قائد جيشه براكادينو، فقال له:

- "هل بقي لنا أمل؟"
- "لا سيدي. لا مدد... لا مفر... لا طعام إلا الحجارة."
- "إذن فلنتفاوض."

أُرسل وفد البنادقة إلى معسكر العثمانيين. استقبلهم لالا مصطفى باشا بنفسه، وقلبه يحترق شوقًا للنصر وعدلًا لأسرى البحر.

قالوا له:

- "دعنا نخرج سالمين مع أموالنا."

قال:

- "لكم ذلك، لكن أعيدوا لنا سفننا."

ردوا:

- "نُعيدها بعد أن نعود إلى بلادنا."

سألهم:

– "ومن يضمن؟ أعطونا أحد قادتكم رهينة."

فرفضوا.

تماسك لالا باشا، كأن صبره بحر آخر.

قال:

– "أعيدوا لنا أسرانا الذين أسرتموهم."

ابتسم القائد البندقي ببرود وقال:

– "لقد قتلناهم جميعًا."

وهنا... انكسرت آخر موجة من الصبر.

وقف لالا مصطفى باشا، وصرخ، والغضب في عينيه نار لا تُطفأ:

– "تقتلون أسرانا، ونحن لم نقتل واحدًا منكم؟!... ستدفعون ثمن الدم بالدم."

وأُعدم الوفد فورًا.

في اليوم التالي، سمع البحر دوي المدافع. لم يكن صوت الحرب فقط... بل كان صدى الغضب، وثأر الكرامة. 13 شهرًا من الحصار، حتى سقطت القلعة الأخيرة في 1 أغسطس 1571م.

لكن العبرة

قد يظن الظالم أن البحر له، وأن السُفن ملك يمينه، لكن حين يشتعل قلب العدل، ويتحرّك التاريخ برجاله، فحتى أقوى الحصون تُفتح، وأعتى القلاع تسقط، وكل قطرة دم مظلوم... تُنبت نصرًا

"سيف لا يعرف التراجع"

في زمنٍ تعالت فيه رايات الشرك، وتكاثرت فيه قلوب المرتدين، وكانت شبه الجزيرة العربية تموج كأنها بحر غاضب، ظهر رجل لا يهاب الموت، بل يتقدمه، ويعرفه بالاسم، ويحمله على كتفه كما يحمل الفارس درعه... إنه خالد بن الوليد، سيف الله الذي لا يُغمد.

لم يكن صوت خيول جيشه وحده الذي يُسمع حين يقترب، بل كان صدى اسمه يسبق صليل السيوف، يرعب القلوب، ويهزم المعنويات قبل أن تشتبك الأسلحة. في معارك الردة، وفي فُرس، وفي العراق، وفي الشام، كان حضور خالد كأن السماء أذنت بالنصر حين نزل إلى الأرض.

في إحدى معاركه قرب الأنبار، خرج إليه أحد فرسان الفرس مشهور بالبأس والشجاعة، كان يُلقب بـ"نمر الحديد"، ولم يكن أحدٌ قبله قد جرؤ على مواجهته. خرج نمر الحديد يرتدي درعه

الثقيل، وخيله تصهل في الأرض كبطل لا يُهزم. نظر إليه خالد بن الوليد نظرة اختزلت كل شيء، ثم قال بهدوء:

"دعه، فإني أراه وجبة فطور سهلة لسيفي هذا".

وما إن اشتبك معه، حتى بدا كأن عاصفةً من نار هبطت على رأس نمر الحديد، فلم تمر إلا لحظات حتى خرّ صريعًا، وسيف خالد يُقطر منه دم العدالة.

لكنه، بالرغم من كل بأسه، لم يكن ظالمًا. لم يكن يسرق، ولا ينهب، ولا يتعرض لحرمة، ولا يضرب فلاحًا، بل كان يحميهم، ويُكرمهم، ويُعينهم. ولما سُئل يومًا: "يا خالد، لِمَ هذا اللين مع أهل الزرع؟"، أجاب بقلب القائد الذي يعرف سر الدولة:

"هؤلاء الفلاحون هم وقود الأمة، بهم نأكل، وبهم ننتصر، فمن ظلمهم فقد خسر الأرض قبل أن يخسر المعركة".

حتى أهل الذمة، كان يرعاهم، ويحميهم من جندٍ قد يطغون، فكانوا يدعون له، ويخشون فقده أكثر مما يخشون فقد ملوكهم.

وحين اشتدت معركة "عين التمر"، وهجم العدو من الجهات كلها، ولم يزل أحد القادة في تردد، صاح خالد: "الساعة التي تتردد فيها، يموت فيها ألف رجل! أما آن لسيوفنا أن تجيب؟". ثم اندفع، وفتح الطريق بدمه، وجعل من جسده ممرًا للنصر.

ومع كل ذلك، لم يُعرف عنه أنه اغتصب أرضًا، أو ظلم إنسانًا، أو تطاول على عرض، أو ضيّع أمانة. كان سيفًا للحق، لا يُغمد حتى يعود الناس آمنين

العبرة

ليس البطل من يملك السيف، بل من يعرف متى يرفعه، ومتى يُنزل الرحمة. القوة الحقيقية لا تظهر في ساحات القتال فقط، بل في قلبٍ يهاب الله، ويُرهب الظالمين. وخالد، كان سيفًا لا يصدأ، لأنه سيف نُصِب على ميزان العدل.

ومن سار على خُطى خالد، فلن يهزمه زمن.

خاتمة

كل قصة من هذه القصص ليست مجرد سرد لأحداث أو معارك، بل هي نبض حياة، صوت إنسان حاول أن يحفظ كرامته، وأن يزرع الأمل في ظلمة الزمن. عبر هذه الصفحات، رأينا كيف يمكن للقوة أن تكون رحيمة، وكيف يمكن للعدل أن يُشهر سيفه دون أن يُسفك دم بريء.

إن التاريخ ليس مجرد أرقام وتواريخ، بل هو دروس وعبر لمن يفتح قلبه وعقله. من خالد بن الوليد، تعلمنا أن القوة الحقيقية ليست في قهر الآخرين، بل في حماية الضعفاء ورعاية من

يعتمدون علينا. ومن حكايات الحصار والفتح، فهمنا أن الإرادة والإيمان بالله هما الجسر الذي يعبر بنا من الظلم إلى النصر.

فلنحمل معنا هذه الدروس في حياتنا، ولنكن مثل هؤلاء الأبطال الذين لم ينسوا إنسانيتهم، حتى في أشد اللحظات. لأن العبرة ليست فقط في انتصار الجيوش، بل في انتصار الروح